

المحاضرة الحادية عشر

الجدل في القرآن الكريم

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها. ولكن المكابرة كثيرًا ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبّه تلبسها لباس الحق، وترينها في مرآة العقل، فهي في حاجة إلى مقارعتها بالحجة، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف أمنت أو كفرت. والقرآن الكريم -وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة- وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله. فألجم خصومتهم بالحس والعيان، وعارضهم في أسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم.

تعريف الجدل:

والجدل والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، أصله من جدلت الحبل: أي أحكمت قتله، فكان المتجادلين يقتل كل واحد الآخر عن رأيه.

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} 1، أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ}

طريقة القرآن في المناظرة:

والقرآن الكريم تناول كثيرًا من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

أ- لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

ب- ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثرًا وأبلغ حجة.

ج- ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والالغاز لا يفهمه إلا الخاصة، وهو على طريقة المنطقة ليس سليمًا من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمداولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "الرد على المنطقيين": "وما يذكره النُّظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه،

وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإننا إذا قلنا: هذا محدث، وكل محدث فلا بد له من محدث، أو ممكن، والممكن لا بد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث مطلق، أو واجب مطلق.. لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه". وقال: "فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد أعرف الله"، وقال: "وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتُصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وغير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار.. وقال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ} 4، فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه".

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تقتصر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطولوعها، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول.

قال الزركشي¹: "اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما بين برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين.

أحدهما: بسبب ما قاله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} .. الآية 2.

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حُمل الحديث المروي: "إن لكل آية ظهراً وبطناً ولك حرف حداً ومطلعاً" لا على ما ذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} 3، وغيرها من الآيات.

واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين.... ومن ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا} 1؛ لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً".

أنواع من مناظرات القرآن وأدلتها:

أ- ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهذا النوع كثير في القرآن.

فمنه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} 1.

وقوله تعالى: {وَالْهَيْكَلُ إِلَهُ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ} إلى قوله: {آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

ب- ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

1- منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم

وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى: {أَمْ خُلِفُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِفُونَ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيِّرُونَ، أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُنُونَ، أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ، أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ، أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ، أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}

2- الاستدلال بالمبدأ على المعاد. كقوله تعالى: {أَفَعَيَّبْنَا بِالْخُلُقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} 2، وقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ، يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} 3، وقوله: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} 4، ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى}

3- إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها كقوله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} 6، ردًا على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}

4- السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم، كقوله تعالى: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} 1.

5- إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد، كقوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 2، فنفي التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون من اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضًا فإنه خلق كل شيء، وخلق كل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور - كالحار والبارد - فلا يجوز إضافة الولد إليه

الأمثال في القرآن:

جرى الناس على اختلاف مشاربهم على ضرب المثل في أحاديثهم لما يرمز إليه من معان كثيرة وإشارات دقيقة، حتى صارت الأمثال جارية على ألسنة الناس كالحكم، وذلك أن المثل نتيجة تجربة أو تجارب كثيرة، وخلاصة فكر عبر العصور، وهو في عرفهم صادق في مدلوله.

والقرآن يخاطب الناس بما يعرفون، وبالأساليب التي يدركون، فجاءت الأمثال في القرآن الكريم لغايات وأهداف سامية، وتكشف للناس العبر بسهولة ويسر، ولتربط الحاضر بالماضي لأخذ العظة والعبرة. وأقبل العلماء والباحثون يدرسون الأمثال في القرآن ويتدبرونها، ويظهرون للناس معانيها ومراميها.

ومن أشهر المؤلفات في أمثال القرآن:

- الأمثال القرآنية: علي بن محمد الماوردي.
- الأمثال في القرآن الكريم: لابن قيم الجوزية وهو جزء من كتابة (إعلام الموقعين).
- أمثال القرآن: للجنيد القواريري.
- أمثال القرآن: نفطويه.

تعريف المثل:

لغة: المثل و المِثْل والمِثْل كالشبه والشبه لفظاً ومعنى. والمُثَلُّ المصوّر على أمثال غيره.

والمثل: عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره.

أما المثل في القرآن الكريم: فهو إبراز المعنى في صورة حسية موجزة تكسبه روعة وجمالاً، ولها وقعها في النفس سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا.

أنواع الأمثال في القرآن الكريم:

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

1 - الأمثال المصراحة:

وهي التي يصرح فيها بلفظ المثل أو بما يدل عليه من تشبيه أو نظير أو غير ذلك. وهذا النوع كثير في القرآن الكريم. ومن أمثلة ما صرح فيه بلفظ (المثل) قوله تعالى في المنافقين: {مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمت لا يبصرون* صم بكم عمى فهم لا يرجعون}، ومن أمثلة التشبيه بحرف الكاف قوله تعالى: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب}

2 - الأمثال الكامنة:

وهي التي لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها دلت على معان رائعة موجزة، ولها وقعا إذا نقلت إلى ما يشبهها. وآيات هذا النوع قريبة الصلة بمعاني أمثال معروفة سائرة فهي أمثال بمعانيها لا بألفاظها ومن هنا سميت ألفاظاً كامنة.

ومن أمثلة ذلك ما رواه الماوردي أن مضارب ابن إبراهيم سأل الحسين ابن الفضل: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن. فهل تجد في كتاب الله (خير الأمور أوسطها)؟ قال نعم. في أربعة مواضع:

أ - قوله تعالى: {لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك}.

ب - قوله تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً}. قلت: فهل تجد في كتاب الله: (من جهل شيئاً عاداه)؟ قال: نعم في موضعين:

- أ - قوله تعالى: {بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه}.
 ب - قوله تعالى: {وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم} ... وذكر أمثلة أخرى.
 وهذه كلها آيات قرآنية لم يصرح فيها بلفظ المثل ولكنها موافقة لمعاني أمثال معروفة سائرة.

3- الأمثال المرسلّة:

وهي آيات من القرآن جرت مجرى المثل.
 {ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله}. {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم}. {ما على الرسول إلا البلاغ}. وغير ذلك كثير .

حكم استعمال الأمثال المرسلّة:

جرت عادة بعض الناس على ضرب المثل بالآيات القرآنية في بعض الأحوال, وقد اختلف العلماء في ذلك, فمنهم من منع كالرازي وغيره, فقد قال في تفسير قوله تعالى: {لكم دينكم ولي دين}: جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة, وذلك غير جائز, لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به, بل ليتدبر فيه, ثم يعمل بموجبه, والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم, وقال الزركشي: ((يكره ضرب الأمثال بالقرآن)).

قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهيم بحاجته فيأتيه من غير طلب فيقول كالمزاح {جئت على قدر يا موسى} فهذا من الاستخفاف بالقرآن, وأجازه آخرون, قال محمد الخضر حسين: ((ولا حرج فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد, كأن يأسف أسفاً شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول {ليس لها من دون الله كاشفة}, يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول {لكم دينكم ولي دين} والإثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح)), وهذا الرأي بهذا التفصيل هو الراجح, والله أعلم.

خصائص و مزايا الأمثال القرآنية:

للأمثال في القرآن الكريم خصائص كثيرة منها:

- 1 - دقة التصريح مع إبراز العناصر المهمة من الصور التمثيلية كقوله تعالى في الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم: {ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون}.
- 2 - التصوير المتحرك الحي الناطق كقوله تعالى في أعمال الكفار: {مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد}.
- 3 - صدق المماثلة بين الممثل والممثل له. كقوله تعالى: {إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون, مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون}.
- 4 - كثيراً ما يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على فهم المخاطب. وقد تحذف من الممثل له مقاطع أيضاً, ومثال ذلك قوله تعالى: {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب}. ففي المثل أبرزت صورة السراب ثم الظمآن الذين ظنّه ماءً, ثم خيبته عند وصوله إليه, وحذف ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له. وفي الممثل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا وطوى ما عدا ذلك لإدراك المخاطب له. وهذا من بلاغه القرآن.

فوائد الأمثال في القرآن الكريم وأغراضها:

للأمثال في القرآن الكريم أغراض و مقاصد ولها فوائد كثيرة منها:

- 1 - إظهار المعنى المعقول المجرد في صورة حية ملموسة متحركة: وكقوله تعالى: {وحوور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون}
- 2 - قوة الإقناع والحجة: ففي قوله تعالى {ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون}. فالحجة في هذا المثل تثبت أن أفراد المالك الذي تجب طاعته أفضل و أكرم للملوك من تعدد المالكين، فالأمران ليسا بمتساويين {هل يستويان مثلاً}
- 3 - الترغيب: كقوله تعالى: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم}.
- 4 - التهيب: كقوله تعالى: {وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}
- 5 - المدح: قال تعالى: {ألم ترى كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون}.
- 6 - التنفير: كقوله تعالى: {ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه}. وقد عد الشافعي رحمه الله تعالى معرفة الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن

المحاضرة الثانية عشر

قصص القرآن الكريم

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، وبصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، ويصوره في أبلغ صورة: قصص القرآن الكريم

معنى القصص:

القص: تتبع الأثر. يقال: قصصت أثره: أي تتبعت، والقصص مصدر، قال تعالى: {ارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} 1، أي رجعا يقصان الأثر الذي جاء به. وقال على لسان أم موسى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} 2، أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} 3، وقال: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} 4، والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى صورة ناطقة لما كانوا عليه.

أنواع القصص في القرآن:

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبيين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت ثبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحو

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك

فوائد قصص القرآن:

وللقصص القرآني فوائد نجمل أهمها فيما يأتي:

- 1- **إيضاح أسس الدعوة إلى الله**، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾
- 2- **تثبيت قلب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-** وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بضرورة الحق **وجنده**، وخذلان الباطل وأهله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ 1.

- 3- **تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.**

- 4- **إظهار صدق محمد -صلى الله عليه وسلم-** في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

- 5- **مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى**، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ النُّورَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالنُّورَةِ فَأْتُلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

- 6- **والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع**، وترسخ عبره في النفس: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصِّ تَكَرُّرِ الْقَصَصِ وَحِكْمَتِهِ:

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن ، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك. ومن حكمة هذا:

- 1- **بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها.** فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر، وتُصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

- 2- **قوة الإعجاز:** فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

- 3- **الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس**، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام. كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون؛ لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

- 4- **اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام**، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال

نماذج تطبيقية من القصص القرآني على قصة يوسف عليه السلام

قص الله تعالى قصة يوسف وأخوته ؛ فالقصص الحسن هنا ليس الرواية المتخيلة من الواقع وليست الرواية المصنوعة بمحاكات الواقع ، إنما هي التاريخ والخبر وحقيقة ما كان ، إنه مشاهد التاريخ في حركةٍ وصورٍ وأصواتٍ ، ونجد أن البطل الحقيقي في القصص القرآني ليس هذا الإنسان بذاته الذي تدور به أو من حوله أحداث الخبر ؛ فالبطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه ، والبطل هو هذا القانون الذي تظهر نتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر في الجماعة التي يعبر عنها أو التي يعارضها ؛ فالبطل مثلاً ليس يعقوب عليه السلام وأولاده ، إنما هو "الهداية" في يعقوب عليه السلام و"الحسد" في أولاده ، والبطل أيضاً ليس يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ؛ بل هو "الطهارة والأمانة" في يوسف عليه السلام، و"الشهوة" في امرأة العزيز ، وهكذا في مختلف المواقف يكون ، إن المتمعن في هذه القصة من القرآن يتلمس شحنات نفسية من أبطال القصة ، ومن بعض كلماتها وإشاراتنا ؛ فكلية "الصبر" مثلاً تجدها حاضرة دائماً على لسان يعقوب عليه السلام ، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف عليه السلام ، وتوكيد الإيمان على لسان أخوته ، ولو نظرنا من منظور علم النفس لوجدنا سلوكاً متبايناً من شخصياتها ، كالتبرير والإسقاط والكذب والغيرة والقلق والإحساس بالذنب ، ونحو ذلك من الحيل النفسية اللاشعورية التي يلجأ لها الإنسان في معاملاته النفسية ، والتي يسميها علم النفس "آليات عقلية" ، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله ، وهو يحاول تحقيق رغباته(2). فأخوة يوسف عليه السلام ضلوا ضحايا الكبت الذي عاشوه؛ كي يخفوا رغبتهم في التخلص من أخيه يوسف؛ حتى يخلو لهم حب أبيهم، ولكنهم يفشلون في إخفاء وكبت هذه الرغبة بل كثيراً ما تبدو فيما يصدر عنهم من تصرفات ومواقف وكلمات ضد يوسف؛ مما جعل يعقوب عليه السلام يشك في حسن نواياهم عندما دعوا يوسف إلى أن يلعب معهم؛ فقال لهم : ؟ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ كان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم، فكل ما يهتمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه؛ فكان اتفاقهم على قتله، وتلطيف قميصه بالدم، وادعاء أن الذئب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم، غير أن التلفيق كان واضحاً؛ لأن القميص لم يكن ممزقاً بآثار أسنان الذئب؛ مما جعل يعقوب عليه السلام لا يصدقهم؛ ولهذا كان دائماً يدعوهم إلى أن يتقصوا آثار أخيههم، ولو أنه صدّقهم في دعواهم لما أصر على أن يقتفوا آثاره، وقد وقعوا في حالة التبرير كما يفعل المذنب؛ إذ يعمد إلى تفسير سلوكه؛ ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسباباً معقولة، فهم يقولون: ؟ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ؟ (1) .

الحكمة في عدم تكرار قصة يوسف في القرآن .

إن من المعروف عن سمات القصص القرآني ظاهرة التكرار ؛ وهو أن تتكرر القصة في أكثر من موضع من القرآن ، كما في قصة موسى عليه السلام ، وقصة نوح عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، ولكن نجد أن قصة يوسف عليه السلام لم تتكرر في أي موضع من القرآن ؛ فقد جاءت في موضع واحد ، وهنا يطرح السؤال نفسه: ما الحكمة في عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام، وسوقها مساقاً واحداً في موضع واحد دون غيرها من القصص؟، والحكمة في عدم تكرارها كما يراها بعض علمائنا الأجلاء تتجلى فيما يلي: فيها من تشييب لنسوة بيوسف عليه السلام ، وتضمنها أخباراً عن حال امرأة ونسوة افتنن بأرواح الناس جمالاً ، وأرفعهم منالاً ، فناسب عدم تكرار ما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك ؛ ولأنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص ؛ فإن مآلها إلى الوبال كقصة نوح وهود وقوم صالح عليهم السلام وغيرهم ؛ فلما اختصت بذلك اتفقت الدواعي على نقلها لخروجها عن سمات القصص وفي عدم تكرارها إشارة إلى عجز العرب ، كأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : إن كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء (1) ، وثمة أمر آخر وهو أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم ، فقد روي الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : أنزل القرآن فتلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه زماناً فقالوا - أي المسلمون بمكة - يا رسول الله لو قصصت علينا ، فأنزل الله ؟ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ؟ (1) فنزلت مبسطة تامة ليحصل لهم مقصود القصص من استيعاب القصة وترويح النفوس بها، والإحاطة بطرفيها، استخلاصاً لعبورها ودلالاتها وأقوى ما يجاب به أن قصص الأنبياء عليهم السلام إنما تكررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسلهم وأذوهم ؛ والمواقف التي يعيشها النبي تستدعي ذلك التكرير ؛ ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلما كذبوا أنزلت قصةً منكرةً بحلول العذاب كما حل على المكذبين ؛ ولهذا قال تعالى: ؟ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ؟ (2) وقال أيضاً : ؟ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ

أَهْلَكُنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ؟ (3) وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك، تعد قصة يوسف من القصص الطوال، وقد تشكلت بنيتها من خلال عدة أمور تشابكت فيما بينها مكونة قصة من أروع القصص وأحسنها. قال تعالى: "تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ" (1).

وتختلف هذه الأمور وتتباين فيما بينها فبعضها يخص البناء الزماني، وبعضها البناء المكاني، وبعضها بناء الشخصيات، تتكاثف هذه الأبنية ويظهر من خلالها مستويات عدة، نتناول في هذا البسط ثلاثة مستويات هي:

"مستوى الرؤيا، مستوى الرمز، مستوى الحيل"

أولاً: **مستوى الرؤيا**. وهو المستوى الأول الذي بدأت به القصة عموماً، قال تعالى: "إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" (2). وينقسم مستوى الرؤيا إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: رؤيا يوسف عليه السلام:

وهي التي قصها على أبيه حيث قال: "إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" (3)، وقد ظهر لأبيه منها أنه سوف ينزله الله منزلاً مباركاً، وسوف يؤتاه الحكمة ويجعله نبياً، فخشي عليه من أخوته فأمره أن لا يحدث بها أخوته، خوف أن يكيدوا له ويؤذوه. وتمثل هذه الرؤيا مساراً سارت على خطوطه أحداث القصة، على مختلف أماكنها وأزمانها؛ لتلتقي في نهايتها بالتأويل، فقد جعلها الله حقاً. قال تعالى: "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"

المرحلة الثانية: رؤيا فتى السجن الأولى:

حين دخل عليه السلام السجن صاحب ذلك أن دخل معه فتیان، ورأى كلٌ منهما رؤيا. قال تعالى: "وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا" (2)؛ فعبّر عليه السلام رؤيا الفتى بأنه سيسقي ربه خمرًا، وربّه أي "سيده" قال تعالى: "يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا" (3)، واستعملت هذه اللفظة لأنه معروف في اللغة أن يقال للسيد رب

المرحلة الثالثة: رؤيا فتى السجن الثاني:

هو الفتى الآخر الذي دخل معه السجن وقص عليه رؤياه التي كان تعبيرها له وقع كبير على النفس البشرية، قال تعالى: "يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ" (1) ولو نظرنا إلى القصة من جهة الدعوة لله نرى أنه عليه السلام لم يترك فرصة إلا واستغلها في الدعوة لله عز وجل، فنراه وهو في سجنه يدعو الله، فعندما طُلب منه تعبير الرؤيا لم يعبرها لهم مباشرة

المرحلة الرابعة: رؤيا الملك:

رأى الملك رؤيا سعى لتعبرها قال تعالى: "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرُ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ" (1).

ومن خلال رؤيا يوسف عليه السلام، ورؤيا الفتيين بالسجن، ورؤيا الملك تتجلى صور مرئية، من الكواكب الساجدة والشمس والقمر، إلى الخمر المعصورة، إلى الخبز المحمول، إلى الطيور الآكلة من رأس الفتى، إلى البقرات التي تأكل مثيلاتها الهزليات والسنبال الخضر واليابسات، فكل هذه الصور تكاد تراها بعينيك رأي العين؛ ذلك راجع لقوة التعبير البلاغي الذي تمتاز به القصة، ويمتاز به النظم القرآني.

فشخصيات القصة "يوسف، ويعقوب، وأخوته، والملك، وفتيا السجن" هي صور مختلفة للجنس البشري، تتباين وتختلف في مستويات متباينة، سواء كانت هذه المستويات اجتماعية أو دينية أو ثقافية أو طبقية، تتفاعل فيما بينها متممة البناء والشكل النهائي للقصة.

ويظهر المكان كعنصر متغير في ثنايا القصة والرؤى التي تتضمنها؛ فالمكان في الرؤيا الأولى هو الكون الذي سجدت فيه الكواكب، ويتفاعل الحدث من خلال تفجر عناصر الحياة التي تتضمنها الرؤيا من خلال دلالاتها المتعددة، فالرؤيا هي التي تحرك الشخصيات والمواقف؛ فرؤيا يوسف عليه السلام أيقظت هواجس يعقوب وخوفه على يوسف عليه السلام؛ فدفعته لتحذيره من أخوته، هذا التحذير والخوف مبعثه شعوره بما يمكنه له أخوته من كيد وحسد، وبالتالي تغذي حسد الأخوة فلجأوا إلى تعذيب يوسف عليه السلام.

أما الساقى فتأويل يوسف رؤياه له أنجاه من السجن، ومن التهمة التي ألصقت به ومهد تأويله لرؤيا الملك؛ لعودته إلى العائلة، وكشف المؤامرة الأولى، ومن ثم تحققت الرؤيا الأولى.

ثانياً: مستوى الحيلة.

ثمة أربع حيل تنتمي إلى مراحل القصة المتعاقبة المكونة لبنيتها، غير أنها تختلف من حيث دوافعها السلبية أو الإيجابية، وهي كالتالي:

أ - **حيلة أخوة يوسف:** ويتمثل موضوعها في التعذيب الكامل لوجود يوسف عليه السلام، سواء الوجود المادي أو الاجتماعي، والدافع لها كما مر بنا هو حب الأب ليوسف، قال تعالى: "إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْذُ الْعَزْلِ" بعد أخذ الإذن من أبيه، قال تعالى: "قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" (2) وقد استعملوا "الكذب" على أبيهم، ثم نفذوا الحيلة برميهم في البئر

ب- **حيلة امرأة العزيز الأولى:** والدافع إليها هو حبها له وشغفها به، قال تعالى: "وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" (1).

ج - **حيلة امرأة العزيز الثانية:** وهي حيلتها على نساء المدينة، ودافعها هو الاقتصاد من تلك النسوة اللاتي أطلقن الشائعات في المدينة حولها، قال تعالى: "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (2)، واحتالت عليهن بأن أعدت لهن متكا، وأعطت كل واحدةٍ منهن سكيناً، وأمرته بالخروج؛ فلما رأيته قطعن أيديهن بلا شعور، وقلن "ما هذا بشراً"، وهذا ما تصبو امرأة العزيز إليه؛ لتسويغ فعلتها، فقالت لهن: إن هذا هو الذي لمتنني فيه، فكتفت عن سبب موقفها من يوسف؛ مغيبةً مكانته "كابن"، ومظهرة مكانته "كرجل"، قال تعالى: "فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ اخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ"

د - **حيلة يوسف عليه السلام:** وهي حيلة إيجابية، مفادها وموضوعها إعادة الحق إلى نصابه، وتحقيق العدالة والمستهدف من هذه الحيلة هم أخوة يوسف عليه السلام؛ فقد استدريجهم وطلب منهم أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم، ولما أتوا به جعل برحله صواع الملك، متهما إياهم بالسرقة، قال تعالى: "فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ" (1)؛ لوصوله إلى الهدف الذي هو اجتماع الأسرة والتمام الشمل، بعد كشف حيلتهم الأولى، قال تعالى: "وَقَدْ أَحْسَنَ بَيِّ إِذْ أَخْرَجْنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"

ثالثاً: مستوى الرمز:

شكل القميص رمزاً دلاليّاً بعيد الدلالة، فقد شكل نقاط تحولٍ بالقصة كاملة، وتكرر في ثلاث قصصٍ جزئية من قصة يوسف، من رؤياه الأولى إلى تحققها بسجود أبيه له. وسوف ننتبع المواقف التي ظهر بها القميص.

الأول: في المؤامرة التي حاكها أخوته ضده وهي رميه بالجب، وعودتهم إلى أبيهم يحملون قميصه، وعليه دمٌ كذبٌ، فالقميص الملطخ بالدم هو كل ما تبقى من يوسف الغائب، لذا حمل في هذا الموقف "رمز الغياب"؛ وربما حمل دلالة الاحتيال والكذب؛ فقد استخدم هذا القميص الملطخ بالدم الكذب في الدلالة على الكذب **الثاني:** وذلك حينما حاولت امرأة العزيز الدفاع عن نفسها، وصرفت التهمة عنها بادعائها أن يوسف هو المُدان، بإرادته السوء بها؛ ولثبوت البراءة شهدَ شاهدٌ من أهلها، بأن قميصه إذا قُذ من أمام فهي صادقة، وهو كاذب، وإن كان قميصه قُذ من خلف فإنه صادق وهي كاذبة. قال تعالى: "قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (1)، فصار هذا القميص هو القاعدة الأساسية التي بني عليها الحكم .

الثالث: حين عادوا بقميص يوسف إلى يعقوب عليهما السلام؛ فقد حل القميص محل يوسف، فالقميص هو الذي يرد البصر إلى يعقوب عليه السلام. فهو من خلال هذا القميص يشم ريح يوسف، قال تعالى: "اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُون * قَالُوا تَأَسَّ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"

ب - يعقوب عليه السلام.

هو ذلك الإنسان الحكيم الذي يمتلك بعد النظر ويستطيع أن يقرأ أو يستشعر ما سيحدث قال تعالى: "قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (1)، فحالته النفسية التي تتسم بالخوف على يوسف من أن يكيد له أخوته دعتة لتحذيره منهم ، وأن يكتم رؤياه عنهم؛ قال تعالى: "قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" (2)

ج - أخوة يوسف عليه السلام.

هم أخوة أخذت الغيرة منهم مأخذاً كبيراً، فغمر الحسد قلوبهم، فعملوا على تغييب أخيه بالكيد له ورميه بالجب.

د - امرأة العزيز.

امرأة افتتنت، همها إشباع رغباتها، وفي النهاية تعود وتشهد لصالحه بعد سجنه.

المحاضرة الثالثة عشر

ترجمة القرآن الكريم

أهمية هذا المبحث.

نوجه الأذهان في فاتحة هذا المبحث إلى أهميته وخطره من نواح ثلاث:

أولاهها: دقته وغموضه إلى حد جعل علماءنا يختلفون فيه قديما وحديثا

ثانيها: أن كثيرا من الناس قاموا في زعمهم بنقل القرآن إلى لغات كثيرة وترجمات متعددة بلغت بإحصاء بعض الباحثين مائة وعشرين ترجمة في خمس وثلاثين لغة ما بين شرقية وغربية وتكرر طبع هذه الترجمات حتى إن ترجمة واحدة هي ترجمة جورج سيل الانجليزي طبعت أربعاً وثلاثين مرة.

وأوفر هذه الترجمات وأكثرها طبعا هي الترجمات الانكليزية فالفرنسية فالألمانية فالإيطالية وهناك خمس ترجمات في كل من اللغتين الفارسية والتركية وأربع ترجمات باللغة الصينية وثلاث باللاتينية واثنان بالأفغانية وواحدة بالجاوية وأخرى بالأوردية.

ومن هؤلاء الذين ترجموه من يحمل للإسلام عداوة ظاهرة ومنهم من يحمل حبا له ولكنه جاهل به وعدو عاقل خير من صديق جاهل.

ثالثها: وقوع أغلاط فاحشة في هذه التي سموها ترجمات وكان وجودها معولا هداما لبناء مجد الإسلام ومحاولة سيئة لزلزلة الوحدة الدينية واللغوية والاجتماعية لأمتنا الإسلامية صانها الله.

أمام هذه الوقائع القائمة والحقائق الماثلة والمحاولات الخطيرة ما كان ينبغي لنا أن نقف مكتوفي الأيدي مكلمي الأفواه كأن الأمر لا يعنيننا في قليل ولا كثير على حين أن الذي وضع منهم فكرة هذه الترجمات وتولي كبر هذه المؤامرة رجل من رجال دينهم ومطران من مطارنتهم يدعى يعقوب بن الصليبي إذ خيل إلى قومه أنه ترجم آيات جمة من القرآن باللسان السرياني في القرن الثاني عشر الميلادي ثم نشرت خلاصتها في هذا القرن سنة 1925 خمس وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية نقلا عن نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني بلندن مشفوعة بترجمة إنكليزية لها وتابع هذا المطران أحبار ورهبان كانوا أسبق من غيرهم في هذا الميدان.

وأنت خبير بما يريدون والله أعلم بما يبيتون.

راجع في ذلك محاضرات الفيكننت دي طرازي¹ ثم انظر ما كتبه العلامة أبو عبد الله الزنجاني في كتابه تاريخ القرآن إذ يقول: ربما كانت أول ترجمة إلى اللغة اللاتينية لغة العلم في أوربا وذلك سنة 1143 بقلم كنت الذي استعان في عمله ببطرس الطليطلي وعالم ثان عربي فيكون القرآن قد دخل أوربا عن طريق الأندلس، وكان الغرض من ترجمته عرضه على دي كلوني بقصد الرد عليه ونجد فيما بعد أن القرآن ترجم ونشر باللاتينية 1509 ولكن لم يسمح للقراء أن يقتنوه ويتداولوه لأن طبعته لم تكن مصحوبة بالردود وفي عام 1594 أصدر هنكلمان ترجمته وجاءت على الأثر 1598 طبعة مراتشي مصحوبة بالردود انتهى ما أردنا نقله أفلا ترى معي أنه يجب علينا بإزاء ذلك أن ندلي برأي سديد في هذا الأمر الجلل لنعلم ما يراد بنا وبقرآننا ولننظر إلى أي طريق نحن مسوقون عسى أن يدفعنا هذا التحري والتثبت إلى اتخاذ إجراء حازم نتصف فيه للحق من الباطل ونؤدي به رسالتنا في نشر هداية الإسلام والقرآن على بصيرة ونور.

ثم ألا ترى معي أنه يجب علينا بإزاء ذلك أيضا أن نتجرد في هذا البحث عن العصبية

الترجمة في اللغة:

وضعت كلمة ترجمة في اللغة العربية لتدل على أحد معان أربعة:

أولها تبليغ الكلام لمن لم يبلغه ومنه قول الشاعر: إن الثمانين - وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثانيها تفسير الكلام بلغته التي جاء بها ومنه قيل في ابن عباس إنه ترجمان القرآن ولعل الزمخشري في كتابه أساس البلاغة يقصد هذا المعنى إذ يقول: كل ما ترجم عن حال شيء فهو تفسرته.

ثالثها تفسير الكلام بلغة غير لغته وجاء في لسان العرب وفي القاموس أن المترجم هو المفسر للكلام وقال شارح القاموس ما نصه وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر قاله الجوهري اهـ.

وجاء في تفسير ابن كثير والبغوي أن كلمة ترجمة تستعمل في لغة العرب بمعنى التبيين مطلقا سواء اتحدت اللغة أم اختلفت.

رابعها نقل الكلام من لغة إلى أخرى قال في لسان العرب المترجم بالضم والفتح 1 هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى والجمع تراجم 2 اهـ وشارح القاموس بعد أن أورد المعنى السابق في ترجمه وترجم عنه قال وقيل نقله من لغة إلى أخرى اهـ.

ولكون هذه المعاني الأربعة فيها بيان جاز على سبيل التوسع إطلاق الترجمة على كل ما فيه بيان مما عدا هذه الأربعة فقل ترجم لهذا الباب بكذا أي عنوان له وترجم لفلان أي بين تاريخه وترجم حياته أي بين ما كان فيها وترجمة هذا الباب كذا أي بيان المقصود منه وهلم جرا.

الترجمة في العرف:

نريد بالعرف هنا عرف التخاطب العام لا عرف طائفة خاصة ولا أمة معينة جاء هذا العرف الذي تواضع عليه الناس جميعا فخص الترجمة بالمعنى الرابع اللغوي في إطلاقات اللغة السابقة وهو نقل الكلام من لغة إلى أخرى ومعنى نقل الكلام من لغة إلى أخرى التعبير عن معناه بكلام آخر من لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده كأنك نقلت الكلام نفسه من لغته الأولى إلى اللغة الثانية.

وهذا هو السر في تعبيرهم بنقل الكلام مع العلم بأن الكلام نفسه لا ينقل من لغته بحال, ويمكننا أن نعرف الترجمة في هذا العرف العام بعبارة مبسطة فنقول هي التعبير من معنى كلام في لغة بكلام آخر في لغة أخرى مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده فكلمة التعبير جنس وما بعده من القيود فصل وقولنا عن معنى كلام يخرج به التعبير عن المعنى القائم بالنفس حين يخرج في صورة اللفظ أول مرة وقولنا بكلام آخر يخرج به التعبير عن المعنى بالكلام الأول نفسه ولو تكرر ألف مرة.

وقولنا من لغة أخرى يخرج به التفسير بلغة الأصل ويخرج به أيضا التعبير بمرادف مكان مرادفة أو بكلام بدل آخر مساو له على وجه لا تفسير فيه واللغة واحدة في الجميع.

قولنا مع الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده يخرج به تفسير الكلام بلغة غير لغته فإن التفسير لا يشترط فيه الوفاء بكل معاني الأصل المفسر ومقاصده بل يكفي فيه البيان ولو من وجه وسنوافيك قريبا بتفصيل ذلك.

تفسير الترجمة:

وتنقسم الترجمة بهذا المعنى العرفي إلى قسمين حرفية وتفسيرية فالترجمة الحرفية هي التي تراعى فيها محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه فهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه وبعض الناس يسمي هذه الترجمة لفظية وبعضهم يسميها مساوية.

والترجمة التفسيرية هي التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة أي محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه بل المهم فيها حسن تصوير المعاني والأغراض كاملة ولهذا تسمى أيضا بالترجمة المعنوية وسميت تفسيرية لأن حسن تصوير المعاني والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير وما هي بتفسير كما يتبين لك بعد.

فالمترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة في الأصل فيفهمها ثم يستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى مع وضعها موضعها وإحلالها محلها وإن أدى ذلك إلى خفاء المعنى المراد من الأصل بسبب اختلاف اللغتين في مواقع استعمال الكلام في المعاني المرادة إلها واستحسانا.

أما المترجم ترجمة تفسيرية فإنه يعتمد إلى المعنى الذي يدل عليه تركيب الأصل فيفهمه ثم يصبه في قالب يؤديه من اللغة الأخرى موافقا لمراد صاحب الأصل من غير أن يكلف نفسه عناء الوقوف عند كل مفرد ولا استبدال غيره به في موضعه ولنضرب مثالا للترجمة بنوعها على فرض إمكانها في آية من الكتاب الكريم قال الله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} فإنك إذا أردت ترجمتها ترجمة حرفية أتيت بكلام من لغة الترجمة يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه بأن تأتي بأداة النهي أولا يليها الفعل المنهي عنه متصلا بمفعوله ومضمرا فيه فاعله وهكذا ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج في أسلوب غير معروف ولا مألوف في تفهيم المترجم لهم ما يرمي إليه الأصل من النهي عن التقتير والتبذير بل قد يستنكر المترجم لهم هذا الوضع الذي صيغ به هذا النهي ويقولون ما باله ينهى عن ربط اليد بالعنق وعن مدها غاية المد وقد يلصقون هذا العيب بالأصل ظلما وما العيب إلا فيما يزعمونه ترجمة للقرآن من هذا النوع.

أما إذا أردت ترجمة هذا النظم الكريم ترجمة تفسيرية فإنك بعد أن تفهم المراد وهو النهي عن التقتير والتبذير في أبشع صورة منفرة منها تعتمد إلى هذه الترجمة فتأتي منها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المترجم لهم أكبر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير ولا عليك من عدم رعاية الأصل في نظمه وترتيبه اللفظي.

وإنما قلنا عند عرض هذا المثال على فرض إمكانها لما ستعرفه بعد من استحالة الترجمة بهذا المعنى العرفي في القرآن الكريم والمثال لا يشترط صحته كما هو معلوم.

ما لا بد منه في الترجمة مطلقا:

لا بد لتحقيق معنى الترجمة مطلقا حرفية كانت أو تفسيرية من أمور أربعة:

أولها معرفة المترجم لأوضاع اللغتين لغة الأصل ولغة الترجمة!

ثانيها معرفته لأساليبيهما وخصائصهما.

ثالثها وفاء الترجمة بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن.

رابعها أن تكون صيغة الترجمة مستقلة عن الأصل بحيث يمكن أن يستغني بها عنه أن تحل محله كأنه لا أصل هناك ولا فرع وسيأتي بيان ذلك في الفروق بين الترجمة والتفسير.

ما لا بد منه في الترجمة الحرفية:

ثم إن الترجمة الحرفية تتوقف بعد هذه الأربعة على أمرين آخرين:

أحدهما وجود مفردات في لغة الترجمة مساوية للمفردات التي تألف منها الأصل: حتى يمكن أن يحل كل مفرد من الترجمة محل نظيره من الأصل كما هو ملحوظ في معنى الترجمة

ثانيهما تشابه اللغتين في الضمائر المستترة والروابط التي تربط المفردات لتأليف التراكيب سواء في هذا التشابه ذوات الروابط وأمكنتها وإنما اشترطنا هذا التشابه لأن محاكاة هذه الترجمة لأصلها في ترتيبه تقتضيه ثم إن هذين الشرطين عسيران وثنائيهما أعسر من الأول فهيهات أن تجد في لغة الترجمة مفردات مساوية لجميع مفردات الأصل ثم هيهات هيهات أن تظفر بالتشابه بين اللغتين المنقول منها والمنقول إليها في الضمائر المستترة وفي دوام الروابط بين المفردات لتأليف المركبات، ومن أجل هذه العزة والندرة قال بعضهم إن الترجمة الحرفية مستحيلة وقال آخرون إنها ممكنة في بعض الكلام دون بعض ولقد علمت أنها بعد هذه الصعوبات يكتنفها الغموض وخفاء المعنى المقصود كما مر في المثال السابق أما الترجمة التفسيرية فميسورة فيما لا يعجز عنه البشر

والمعاني المرادة من الأصل واضحة فيها غالبا ولهذا اعتمدوا عليها في الترجمات الزمنية وفضلها التراجم والمشتغلون بالترجمات على قسيمتها الترجمة الحرفية.

فروق بين الترجمة والتفسير:

ومهما تكن الترجمة حرفية أو تفسيرية فإنها غير التفسير مطلقا سواء أكان تفسيراً بلغة الأصل أم تفسيراً بغير لغة الأصل وقد أشرنا إلى ذلك إجمالا في شرح تعريف الترجمة آنفاً ولكن كثيراً من الكاتبين اشتبه عليهم الأمر فحسبوا أن الترجمة التفسيرية هي التفسير بغير لغة الأصل أو هي ترجمة تفسير الأصل.

ثم رتبوا على ذلك أن خلعوا حكمها على ترجمة الأصل نفسه وكان لهذا اللبس والاشتباه مدخل في النزاع والخلاف لهذا نستبيح لأنفسنا أن نقف هنا وقفة طويلة نرسم فيها فروقا أربعة لا فرقا واحداً بين هذين المشتبهين في نظرهم.

الفارق الأول: أن صيغة الترجمة صيغة استقلالية يراعى فيها الاستغناء بها عن أصلها وحلولها محلها ولا كذلك التفسير فإنه قائم أبداً على الارتباط بأصله بأن يؤتى مثلاً بالمفرد أو المركب ثم يشرح هذا المفرد أو المركب شرحاً متصلاً به اتصالاً يشبه اتصال المبتدأ بخبره إن لم يكن إياه ثم ينتقل إلى جزء آخر مفرد أو جملة وهكذا من بداية التفسير إلى نهايته بحيث لا يمكن تجريد التفسير وقطع وشائج اتصاله بأصله مطلقاً ولو جرد لتفكك الكلام وصار لغواً أو أشبه باللغو فلا يؤدي معنى سليماً فضلاً عن أن يحل في جملة وتفصيله محل أصله.

الفارق الثاني: أن الترجمة لا يجوز فيها الاستطراد أما التفسير فيجوز بل قد يجب فيه الاستطراد وذلك لأن الترجمة مفروض فيها أنها صورة مطابقة لأصلها حاكية له فمن الأمانة أن تساويه بدقة من زيادة ولا نقص حتى لو كان في الأصل خطأ لوجب أن يكون الخطأ عينه في الترجمة، بخلاف التفسير فإن المفروض فيه أنه بيان لأصله وتوضيح له وقد يقتضي هذا البيان والإيضاح أن يذهب المفسر مذاهب شتى في الاستطراد توجبها لشرحه أو تنويراً لمن يفسر لهم على مقدار حاجتهم إلى استطراده ويظهر ذلك في شرح الألفاظ اللغوية خصوصاً إذا أريد بها غير ما وضعت له وفي المواضع التي يتوقف فهمها أو الاقتناع بها على ذكر مصطلحات أو سوق أدلة أو بيان حكمة.

وهذا هو السر في أن أكثر تفاسير القرآن الكريم تشتمل على استطرادات متنوعة في علوم اللغة وفي العقائد وفي الفقه وأصوله وفي أسباب النزول وفي الناسخ والمنسوخ وفي العلوم الكونية والاجتماعية وغير ذلك.

ومن ألوان هذا الاستطراد تنبيهه على خطأ الأصل إذا أخطأ كما نلاحظ ذلك في شروح الكتب العلمية ويستحيل أن تجد مثل هذا في الترجمة وإلا كان خروجاً عن واجب الأمانة والدقة فيها.

الفارق الثالث: أن الترجمة تتضمن عرفاً دعوى الوفاء بجميع معاني الأصل ومقاصده ولا كذلك التفسير فإنه قائم على كمال الإيضاح كما قلنا سواء أكان هذا الإيضاح بطريق إجمالي أو تفصيلي متناولاً كافة المعاني والمقاصد أو مقتصر على بعضها دون بعض طوعاً للظروف التي يخضع لها المفسر ومن يفسر لهم.

الفارق الرابع: أن الترجمة تتضمن عرفاً دعوى الاطمئنان إلى أن جميع المعاني والمقاصد التي نقلها المترجم هي مدلول كلام الأصل وأنها مرادة لأصاحب الأصل منه ولا كذلك التفسير بل المفسر تارة يدعي الاطمئنان وذلك إذا توافرت لديه أدلته وتارة لا يدعيه وذلك عندما نعوزه تلك الأدلة ثم هو طوراً يصرح بالاحتمال ويذكر وجوهاً محتملة مرجحاً بعضها على بعض وطوراً يسكت عن التصريح أو عن الترجيح وقد يبلغ به الأمر أن يعلن عجزه عن فهم كلمة أو جملة ويقول رب الكلام أعلم بمراده على نحو ما نحفظه لكثير من المفسرين إذا عرضوا لمتشابهات القرآن ولفواتح السور المعروفة ودليلنا على أن الترجمة تتضمن دعوى الاطمئنان إلى ما حوت معانٍ ومقاصد هو شهادة العرف العام أيضاً بذلك وجريان عمل الناس جميعاً في الترجمات على هذا الاعتبار فهم يحلون محل أصولها إذا شأوا ويستغنون بها عن تلك الأصول بل قد ينسون هذه الأصول جملة ويغيب عنهم أن الترجمات ترجمات فيحذفون لفظ ترجمة من الاسم ويطلقون عليها اسم الأصل نفسه كأنما الترجمة أصل أو كأنه لا أصل هناك ولا فرع.

وإن كنت في ريب فاسأل ما بين أيدينا من ترجمات عربية لطائفة من كتبهم التي يقدسونها ويطلقون على بعضها اسم تورا
وعلى بعضها اسم إنجيل وما هما بالتوراة ولا بالإنجيل إنما هما ترجمتان عربيتان لأصلين عبريين باعترافهم ولكنهم أسقطوا
وأسقط العرف العام معهم لفظ ترجمة من العنوانين الاثنين وما ذاك إلا لما وقر في النفوس من أن الترجمة صورة مطابقة
للأصل مطمئنة إلى أنها تؤدي جميع مؤداه لا فرق بينهما إلا في القشرة اللفظية وقل مثل ذلك فيما نعرفه من ترجمات
للقوانين والوثائق الدولية والشخصية ومن ترجمات للكتب العلمية

المحاضرة الرابعة عشر

مراجعة

القراءات والقراء:

القراءات لغة:

القراءات جمع قراءة، والقراءة مصدر سماعي لقرأ، تقول: قرأ يقرأ قراءة، وقرأنا، وقرأءا، والقرء في اللغة الجمع والضم،
تقول قرأت الماء في الحوض: إذا جمعته، وسميت القراءة قراءة لأن القارئ يجمع الحرف مع الحرف فتكون الكلمة، والكلمة
مع الكلمة فتكون جملة والجملة مع الجملة. فهو يقرأ بجميع ذلك كله .

القراءات اصطلاحًا:

يخلط كثير من الباحثين بين تعريف القراءات وتعريف علم القراءات، والفرق بين القراءات وعلم القراءات كالفرق بين
القرآن الكريم وعلوم القرآن الكريم.

فالقراءة: هي مذهب من مذاهب النطق بالقرآن الكريم؛ يذهب إليه إمام من الأئمة مذهبًا يخالف غيره مع اتفاق الروايات
والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها.

ومذهب النطق بالكلمة القرآنية له مسميات هي: قراءة، رواية، طريق، وجه.

فالقراءة: ما نسب إلى أحد أئمة القراءات إذا اتفقت الروايات والطرق عنه.

والرواية: ما نسب إلى الأخذ عن هذا الإمام ولو بواسطة.

والطريق: ما نسب إلى الأخذ عن الراوي ولو نزل.

والوجه: ما نسب إلى تخير القارئ من قراءة يثبت عليها وتؤخذ عنه
قال السيوطي: "الخلاف إن كان لأحد الأئمة السبعة أو العشرة أو نحوهم واتفقت عليه الروايات والطرق عنه، فهو قراءة،
وإن كان للراوي عنه، فرواية، أو لمن بعده فنازلًا فطريق، أو لأعلى هذه الصفة تعريف علم القراءات:

وأما علم القراءات:

فهو: علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقًا أو اختلافًا مع عزو كل وجه لناقله، أو "علم بكيفية
أداء كلمات القرآن واختلافها معزواً لناقله"2.

موضوعه: كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها.

استمداده: النقول الصحيحة والمتواترة عن علماء القراءات إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حكمه: فرض كفاية تعلمًا وتعليمًا.

ثمرته وفائدته: العصمة من الخطأ في النطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها عن التحريف والتغيير، والعلم بما يقرأ به كل إمام من الأئمة القراء، والتمييز بين ما يقرأ به، وما لا يقرأ به.

مكانته: علم القراءات من أجل العلوم قدرًا، وأعلاها منزلة، لاتصاله بأشرف الكتب السماوية وأفضلها على الإطلاق، وهو القرآن الكريم،

قال القسطلاني: فإن القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها، ومبنى قواعد الشرع وأساسه، وأصل كل علم ورأسه، والاستشراق على معانيه لا يتحقق إلا بفهم وصفه ومبانيه، ولا يطمع في حقائقها التي لا تنتهي لغرائبها ودقائقها إلا بعد العلم بوجوه قراءته، واختلاف رواياته، ومن ثم صار علم القراءات من أجل العلوم النافعات.

تعريف النسخ لغة واصطلاحاً

النسخ لغة:

يطلق بمعنى الرفع والإزالة، يقال: نسخت الشمس الظل ونسخت الريح الأثر: إذا أزلته، ومنه قوله {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} الحج52

النسخ اصطلاحاً:

رفع الحكم الشرعي بكتاب شرعي متراخ عنه. أي: قطع العمل به، وخرج بهذا القيد ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم، وإنما يقصر على بعض أفراده

شرح التعريف

وبقولنا: (الحكم الشرعي) خطاب الله المتعلق بأفعال لمكلفين، وخرج به رفع البراءة الأصلية كإيجاب الصلاة والزكاة فإنه رفع البراءة الأصلية لذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها، ولا يقال لهذا: نسخ لأنها حكم عقلي لا شرعي.

والمراد بقولنا (بكتاب شرعي) الكتاب والسنة. وخرج بذلك رفع الحكم الشرعي بالدليل العقلي كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه، وكذلك خرج به رفع الحكم الشرعي بالإجماع أو القياس.

وخروج بقولنا: (متراخ عنه) ما كان متصل، كقوله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)

شروط النسخ:

ويظهر من التعريف أن شروط النسخ أربعة

- 1- أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً.
- 2- أن يكون الحكم الناسخ خطاب شرعي متراخ عن خطاب منسوخ حكمه.
- 3- إلا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيد.
- 4- أن يكون بين الدليلين تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما أو إعمالهما معاً.

القسم في القرآن الكريم

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره، فالنفس الصافية التي لم تدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة. أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر، وصيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها، والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد.

تعريف القَسَم وصيغته:

والأقسام: جمع قَسَم -فتح السين- بمعنى الحلف واليمين، والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل "أقسم" أو "أحلف" متعديًا بالباء إلى المُقسم به. ثم يأتي المُقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾¹.

فأجزاء صيغة القسم ثلاثة:

1- الفعل الذي يتعدى بالباء.

2- والمقسم به.

3- والمقسم عليه.

ولما كان القسم يكثر في الكلام، اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثم عُوِضَ عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾²، وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾³، وهذا قليل، أما الواو فكثيرة.

والقسم واليمين واحد: ويعرف بأنه: ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا. وسُمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

المحكم والمتشابه:

تختلف قوى البشر ومداركهم العقلية كما تختلف قواهم ومداركهم الجسمية. فهناك من الأعمال ما يستطيع أن يفعله كل البشر، ومنها ما لا يستطيع فعله إلا الأقوياء منهم، ومنها ما لا يستطيع أحد من البشر فعله. وكذا في المدارك العقلية هناك من المعاني ما يفهمه كل البشر، ومنها ما لا يفهمه إلا العلماء، ومنها ما لا يدرك المراد به أحد من البشر ولا يعلمه إلا الله.

ومن معاني القرآن الكريم ما هو ظاهر الدلالة، واضح المعنى، ومنه ما خفيت دلالاته، وغمض معناه. وتدبر العلماء في معاني الآيات القرآنية ودرسوا هذين النوعين في باب المحكم والمتشابه.

وينقسم المحكم والمتشابه إلى قسمين:

الأول: الإحكام والتشابه العام.

الثاني: الإحكام والتشابه الخاص.

أ- الإحكام العام:

دليله: وردت آيات كثيرة تصف القرآن الكريم كله بأنه محكم منها قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} 1 وقوله تعالى: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} , {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا} , {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ} , {ذَلِكَ نُنْزِلُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} , {الم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} , {يَس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} وغير ذلك.

الجدل في القرآن الكريم

الحقائق الظاهرة الجليلة يلمسها الإنسان وتنتطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها. ولكن المكابرة كثيرًا ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبّه تلبسها لباس الحق، وترينها في مرآة العقل، فهي في حاجة إلى مقارعتها بالحجة، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف أمنت أو كفرت. والقرآن الكريم -وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة- وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله. فألجم خصومتهم بالحس والعيان، وعارضهم في أسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم.

تعريف الجدل:

والجدل والجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، أصله من جدلت الحبل: أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} 1، أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}

قصص القرآن الكريم

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سردًا لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقي فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فنًا خاصًا من فنون اللغة وآدابها، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، ويصوره في أبلغ صورة: قصص القرآن الكريم

معنى القصص:

القص: تتبع الأثر. يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: {ارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا} 1، أي رجعا يقصان الأثر الذي جاء به. وقال على لسان أم موسى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} 2، أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتتبعة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} 3، وقال: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ} 4، والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

أنواع القصص في القرآن:

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت ثبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وابني آدم، وأهل الكهف، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحو

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك

فوائد قصص القرآن:

وللقصص القرآني فوائد نجل أهمها فيما يأتي:

1- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} **الترجمة في اللغة:**

وضعت كلمة ترجمة في اللغة العربية لتدل على أحد معان أربعة:

أولها تبليغ الكلام لمن لم يبلغه ومنه قول الشاعر: إن الثمانين - وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثانيها تفسير الكلام بلغته التي جاء بها ومنه قيل في ابن عباس إنه ترجمان القرآن ولعل الزمخشري في كتابه أساس البلاغة يقصد هذا المعنى إذ يقول: كل ما ترجم

عن حال شيء فهو تفسرته.

ثالثها تفسير الكلام بلغة غير لغته وجاء في لسان العرب وفي القاموس أن الترجمان هو المفسر للكلام وقال شارح القاموس ما نصه وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر قاله الجوهري اهـ.

وجاء في تفسير ابن كثير والبغوي أن كلمة ترجمة تستعمل في لغة العرب بمعنى التبيين مطلقاً سواء اتحدت اللغة أم اختلفت.

رابعها نقل الكلام من لغة إلى أخرى قال في لسان العرب الترجمان بالضم والفتح 1 هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى والجمع تراجم 2 اهـ وشارح القاموس بعد أن أورد المعنى السابق في ترجمه وترجم عنه قال وقيل نقله من لغة إلى أخرى اهـ.

ولكون هذه المعاني الأربعة فيها بيان جاز على سبيل التوسع إطلاق الترجمة على كل ما فيه بيان مما عدا هذه الأربعة فقليل ترجم لهذا الباب بكذا أي عنون له وترجم لفلان أي بين تاريخه وترجم حياته أي بين ما كان فيها وترجمة هذا الباب كذا أي بيان المقصود منه وهلم جرا.